قصص الرشيد



كتاب لقمان الحكيم

تصدرها نهضة مصر بالفجالة

قصص الرشيد

- ٩ -

كتاب لقمان الحكيم

بقلم

ابراهيم عزوز

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

مطبعة نهضة مصر بالفجالة

هارون الرشيد خامس خلفاء الدولة العباسية . وقد كان عصره أزهى عصور المسلمين فى بغـــداد . فبلغت الدولة الإسلامية فى أيامه قمة مجدها . حتى تزلف إليها أكبر ملوك أوربا ، وخطبوا ودها ورضاها .

وجدير بأبناء العرب فى كل مكان أن يقرءوا تاريخ هذا العصر الذهبي ؛ ويقفوا على سر عظمة أجدادهم . ليستمدوا القدوة الصالحة، والعبرة النافعة .

وإنى إذ أقدم للناشئة هذه القصص ، التى تصور هذا العصر تصويراً ، فى بعضه الصدق التاريخى ، وفى بعضه الخيال الأدبى — لأرجو أن ينفع الله بها أبناءنا ، وأن تحفز هممهم لدرس هذا التاريخ المجيد .

والله الموفق　　　　　　　　　　المؤلف

كان الخليفةَ هارون الرشيد ، يخرجُ فى كلِّ عيدٍ ؛ ليزورَ المقابرَ والسجون ، ويتصدَّقَ على المحتاجين ، ويبحثَ حالةَ المساجين .

وفى أحدِ الأعياد خرَجَ هو ووزيرُه جعفرٌ البرمكى ، وذهبَ فى موكبٍ عظيمٍ إلى السجنِ الكبيرِ ؛ فاستَقْبَلَه مديرُ السجنِ استقبالاً حافلاً .

ولما جلس فى حجرةِ المدير ، طلبَ المساجينَ الذينَ انتهَتْ مدةُ عقوبَتِهم ، وصارَ يسألُهم عن سببِ سِجْنِهم وَاحِداً واحدا . وَيقدمُ لكلِّ واحدٍ منهم النصائحَ الغالية ، ويعَرِّفُه كيْفَ يعيشُ بعدَ الخروج من السجن ويأْمُرَ لكلِّ واحد مِنْهُمْ بمبلغٍ مِنَ المال ، لكَىْ يستعمله فى تجارةٍ أو صنعةٍ ، ويعيشَ منه عِيشةً طيبة صالحة ، ويكونَ رجلا نافعاً لنفسِهِ وأُمّتِه .

وفرِحَ المساجينُ بهذه المعَاملة الطيبة ، ودعَوْا للرّشيدِ بالعِزّة

والنصْرِ ، وَدَوَام المُلْكِ والسَّعَادة ، وَوَعدُوه أن يَسِيروا فى حياتِهم المقبلَةِ سِيرَةً حميدَة ، تسُرُّه وتزيد رِضاهُ عنهم .

ولمَّا أراد أن ينصرِفَ من السجن ، نظرَ فرأى على بُعْدٍ مسجُونا ، فى رِجْلَيْه السلاسِل الثقيلَة ، ولـكنَّه واقِفٌ فى صلاته بخَشوعٍ وإخلاص ، ودُمُوعه تسيلُ على خَدَّيْه ، تَبلُّ الأرضَ تحتَ قدمَيْه ، وعلاماتُ التقوى والصلاح طاهرة فى وَجْهِهِ ، وفى كل حركةٍ من حرَكاته .

فتعجَّبَ الرشيدُ من منظرِ هذا المسجون ، ولفَتَ نظر جعْفَرٍ إليه . وانتظر حَتَّى أتَمَّ صلاتَه وخشوعَه ، وطلبَ من مديرِ السجنِ أن يُحْضِرَه إليْه .

حضر هذا السجينُ فى سَلاَسِله وَقيودِهِ الثقيلة ، وَلمَّا وَقف بين يدَىِ الرشيد ، قال :

— السلامُ عَلَى أمير المؤمنين ، وَخليفةِ المسْلِمين ! !

فأجابه الرَّشيدُ :

— وَعلَيْكَ السَّلام ! !

إنّ الذى يراكَ فى خضوعِكَ وَخشوعِكَ ، ووُقوفِك

أَمامَ الله ، يظُنُ أَنَّكَ من كبارِ الأتقياءِ المتعبِّدِين !! ولَوْلاَ ذنبٌ كبيرٌ جَنَتْهُ يدُكَ ما دخلْتَ هذا السِّجنَ مع كبارِ المجرمين !!

فأظهر الرجلُ الخضوعَ والندمَ ، وقال :

— عفوًا يا سيدى الخليفة ! إن لى قصةً عجيبة ، لو تفضلتم علىَّ بسماعها ، لعرفتم يا مولاىَ أنى لستُ مجرماً مثلَ غيرى من المجرمين ، وأنى سُجِنْتُ ظلماً بدونِ سبب .

فقال الرشيد وهو ينظُرُ إلى جعْفَرٍ ويبْتَسِمُ :

— كلُّ مَسْجُونٍ يدَّعى أنه سُجن ظلما ! فهلْ أصبحَ القُضَاةُ لا عملَ لهم إلاَّ ظلمَ الرعية ، والحكْمَ عليهم بدون سببٍ ؟! .

فقال جعفرٌ وهوَ يؤكد كلام الرشيد :

— هكذا الناسُ جميعاً يا مولاى . . . يحِبُّون دائِماً أَن يظهَرُوا بأنهم مظلومون .

ثم التفت الرشيدُ إلى المسجون وقال له .

— اذكرْ قصتك ، وكُن صادقا فيها ؛ واعلمْ أَنَّكَ لا تَجْنى من الكذبِ إلا شرًّا جديدا .

وأظهر المسجونَ الخضوع ، وشكرَ الخليفة ، وقال :
أَنا يامَوْلاىَ خادِمُكمْ منصورٌ ، وقد نشأت

فى بيْتٍ فقير ؛ وَلذلك أخذَنِى والدى عندما بَلَغ عُمْرِى

سبعَ سنوات إلى مصنعٍ لِلْحُصْرِ ؛ لأتَعلَّمَ هذه الصِّناعَة .

فقال الرَّشِيد :

— حَسَنًا فعَلَ أَبوك ! إنه رجُلٌ عاقل ؛ فإن أقلَّ

صَنْعَةٍ يتَعلَّمُها الإنسانَ تحفَظُه من الفقر ، وتغْنِيه عمَّا

فى أَيدِى الناس ، وتنفَعُه وتنفعُ بلادَه ، فَلِماذا تركْتَ

هذه الصنعةَ الشريفة ، وجئْتَ إلى هذا السجن تمشِى

على قدمَيْك ؟ ؟

فأجابَ السجين :

— عفْوًا يامولاى الخليفة ، فإنِّى ما تركْتُ صَنْعَتى ،

بلْ أقبلْتُ عليها بجدٍّ وإخلاص ، حتى أتقنْتُها ومهرْتُ فيها ، ولما كبرْتُ ، وصرتُ ابن سبْعَ عشْرةَ سنةً ، انفردْتُ بصنْعَتى ، وأنشأْتُ مصنَعًا صغيراً فى بَيْتِنَا .

وكنْتُ كلَّ يَوْمٍ أصنعُ حصيراً ، وأذْهَبُ به إلى السوق ، فأبيعُه وأشترى ببعض ثمنِه (سمارا) لحصيرٍ جديد ، وما زاد من الثَّمنِ أشْتَرى به قوتًا لأبى وأُمِّى وإخوتى ..

فابتسمَ الرشيد وقال :

— هذا رِبْحُ حلالٌ ،ورزقٌ يَسُوقُهالله إليْكَ كلَّ يوْم، وطاعَةٌ عظيمةٌ لله ، بخدْمَتِك لأبَوَيْك وَأهْلِكَ !

وَلكنْ لماذا لم تَسْتَمرَّ فى هذه الِحْرفةِ الشريفة ؟!

فأجاب المسجون :

— وحينما بلغتُ عشرين سنةً ، أردْتُ أن أُكمِلَ دِينى بالزواج . فبحَثْتُ عن زوْجَةٍ طيِّبة ذاتِ أخلاق كريمة، وَسيرةٍ حميدةٍ ، وخطبْتُها من أبيها ، وَتمَّ زواجُنا بعد فترةٍ قصيرة .

ولم يمضِ على هذا الزواج إلا سَنَةٌ حتى صِرْت وَالداً لطفلَيْن توْءَمَيْن . فزادَت مسئوليَّتى ، وَكثرَتْ متاعِبى ، وَصِرْتُ أعملُ ليْلاً ونهاراً ، لِكَىْ أَحصُلَ على رِزقِ هذه العائلةِ الكبيرة . وَكلما طالت الأيام ، زَادَ الأولادُ ، وَكثر السَّعْى . ولكنَّ الرزقَ ظلَّ ضيِّقاً محدوداً .

فقال الرَّشِيد :

— لا بُدَّ أنَّكَ كنتَ غيرَ مُعْتَمِدٍ على الله كلَّ الاعتماد ؛ فإن الله يرزَقُ مَنْ يعملُ بجدٍّ وَيعتمدُ عليه ! !

فأجابه المسجون :

— لقد كنتُ يا مولاىَ مغْروراً بجَوْدَة صنعتِى . وَفى ذاتِ مرة ، صَنَعْتُ حصيراً جميلا جدًّا ، وَزخْرَفْتُه وزَيَّنتُه حتى صارَ كأنَّه سجَّادَةٌ من صنعِ العَجَم . وَخرجْتَ به إلَى السُّوق ، وَأَنا أَطمعُ أن أبيعَه بثَمَن كبير ، وَرِبْحٍ وَافر . وَلكنِّى لم أجدْ مَنْ يشتريه منى .

فأَخذْتُ أَدُورُ به وأنتقل من مكان إلى مكان ، وأعرِضه بثَمنٍ قليل ، لا يُسَاوى تكاليفَه . ومَع ذلك لمْ يُفَكِّرْ أحدٌ فى شرائِه ، لا بقليلٍ ولا بكثير .

وانتهى اليوْمُ ، ورجعْتُ إلى زوجتى وأولادِى ، فوجدتُهم ينتظِرون عَوْدتى ، ومَعى الطَّعَامُ والُخبز . فلمَّا رأتْ زوْجَتى الحصيرَ على ظَهْرِى ، صاحَتْ وصَرَخَتْ هى والأولادُ من شدةِ الجوعِ .

فنظر الرشيدُ إلى جعفَرٍ وهو فى أشدِّ حالاتِ الألَم . ثم الْتَفتَ إلى السجين ؛ ليكملَ قصتَه المؤلمة ، فاسْتَمَرَّ الرجُلُ يقول :

— وقضينْا ليلتَنَا فى أَلَمٍ شديد ، وجُوعٍ قاتِلٍ . ولَمَّا طلَعَ النَّهارُ حملْتُ الحصيرَ مرةً ثانية ، وخرجْتُ به إلى السُّوق . ولكنَّ هذا اليومَ لم يكُن أسعَدَ حظًّا من اليَوْمِ السابق . وعُدْتُ إلى البيتِ بالحصيرِ كما خرجْتُ

منه فى الصباح ، وهُنا صاحَتْ زَوْجَتى صيْحَة شديدة ، وقالَتْ :

— ما هذا النَّحْسُ الذى يلازِمُ هذا الحصير ؟ ! يا ليْتَكَ لم تُتْقِنْ صُنْعَه ، ولم تنفِق عليْه كلَّ ما معَنا ! !

فقلتُ لها :

— صبْرَكِ يا امرأةً ! فإن اللهَ يَمْتحِنُنَا بهذه الشدَّةِ ، وعلينا أن نصبرَ . ولا بُدَّ أَنْ يفُكَّ اللهُ هذه العقدةَ ، وأَن يرزُقنا من أجلِ خاطر الأطفالِ الصِّغار .



فسكت صُرَاخُها وصياحُها ، وأعطتْنى ثوْباً من ثيابها لأبيعَه ، فذهَبْتُ إلى سوقِ الملابس القديمة ، وبعْتُ الثوبَ بدِرْهَم ، واشتريْتُ به خُبزاً وجُبناً وزيتاً ، ورَجعْتُ إلى أولادى . وتركتهم يأكلونَ وأنا أنظرُ إليهم حتَّى شبعوا ، وشبعَتْ أمُّهم ، ولم يبقَ لى شَىْء .

فحمِدْتُ اللهَ الذى أطعَم الأطفال وأُمَّهُمْ ، وخرجْتُ إلى الطريق أُفكِّرُ فى أمرى . فرأيْتُ بابَ المسجِد مفتوحاً ، والناسُ يَسْتَعِدُّون لصلاةِ العِشاءِ ، فقلْت فى نفسى :

— أدْخُلُ وأتَوَضَّأُ وأُصَلِّى مع الناس ، وأدعو الله ، وأطلبُ منه المساعدة . لعلَّ اللهَ يُزيلَ هذه الشدَّة ، ويفتحُ علينا بابَ الرزقِ . . .

فقال الرشيد :

— الآنَ عرفْتَ كيف تسعى إلى رِزْقِكَ . . . فإن الله

لا يرُدُّ دعوَةَ المحتاج ، إذا اعتمدَ عليه ، وَأخلص في دعوته . وَالصلاةَ خيْرُ مفاتيح الرزق !! فهَلْ رَزَقك الله يا مَنْصُور ؟ !

فقال منصور :

— نَعَمْ ، صدقْتَ يا موْلاَيَ ! ! فإنَّ الصلاة حقاً خيْرُ مفاتيح الرزق ، وَمَنْ أرادَ الرزق السريعَ الكثير ، فعلَيْه أن يعملَ وَيُصَلِّى ، وَيدعُوَ اللهَ بإخلاص أن يُبارِكَ لَهُ في رزقِهِ ، فإنى ما كِدْتُ أخْرُجُ من المسجدِ مع المصلِّين ، حتى لَقِيَنى في الطريقِ شيخٌ مغربى ، أبيَضُ اللحْيَة وَالوجه ، وَعليه مظاهرُ التقوى وَالصلاح . وَاستوْقفَنى فوَقَفْتُ ، وَإذا به يقولُ لى :

— يا رجُل ، إنك أصفرُ اللَّوْنِ هزيلُ الجسم ، وَذلِكَ سببَه وَلا شكَّ ، أنكَ كثيرُ اللهوِ وَالعبثِ ؛ فلِماذا لاَ تتوبَ إلى اللهِ ، وَتتركَ ما أنت فيه من الفسادِ وَالشر ؟ !

فقلتُ لَهُ :

— شُكْراً لكَ يا سيدى على نصائِحك الغالية ، وأُقْسِم لكَ بربِّ العالَمين أَنّى لا أَجِدُ ما أشترى به الخبزَ لأطفالِى ، فَمِنْ أَيْنَ لى نقودٌ أَصرفها فى اللهوِ والعبثِ ؟!

وأَخبرتُه بقصَّتى كاملة ؛ فرقَّ قلبُه لى ، وعطَفَ عَلَىَّ ، وأَخرج من جَيْبه كيساً مملوءاً دَنانِير ، وقال :

— خُذْ هذا الكِيس . وكلُّ ما فيه حَلالٌ لكَ . وأَنفِقْ منه على نفسِكَ وعِيالِكَ . واستمِرَّ فى عملِكَ وصنعتِكَ ، وَلِى عليك شَرْطٌ واحِد ، وهُوَ أن تَقابِلَنِى بعدَ سنةٍ كاملةٍ فى هذا المكانِ بالضَّبْطِ .



فظهر الاطمِئْنان عَلَى وجه الرشِيد، ونظَرَ إلَى جعْفرٍ وقالَ :
سبَقَكَ المغربِىُّ يا جعفرُ إلى عملِ الخير ! !
فكيْفَ نَسِيتَ منصوراً وأولادَهُ حتى باتوا لَيْلَتَيْنِ بالجوع، وقد عاهَدْتَنى أن تبحَثَ عن المحتاجِينَ فى كلِّ مكانٍ ! !

فأجابَ جعفرٌ فى خَجَلٍ وحسْرَة :

— سأحاسِبُ رجالى يا مولاىَ ، لأنى كلَّفْتهُمْ البحثَ عن المحتاجين. وسأبْحَثُ عن هذا المغربىِّ الكريم لِأُساعِدَه على مُرُوءَته وكرَمِه . فإن مثلَهُ بين الناسِ قليل .

فسألَ الرشيدُ منصوراً :

— ما اسْمُ هذا المغربىّ ؟ وأينَ ذهَب ؟

فقال منصور :

— اسمُهُ سيدى عبدُ الجبار. ولحديثه بقيّةٌ يا مولاىَ الخليفة ، وسكتَ قليلاً ثم قال :

— وقد طِرْتُ إلى البيْت يا مولايَ الخليفة من الفرَح .

فقالَ الرشيدُ وَهو يبتَسِم :

— وكيف استَقْبَلَتْكَ زوجتُك وَأولادُك يا منصور ؟!

فاستَمَرَّ منصورٌ يقول :

— ولمَّا دخلتُ على زوجَتى ، ووضعْتُ الكِيس فى حِجْرِها ، وشعرَتْ بثِقلِ الدَّنانير ، صَرَخت وصاحَت قائلة :

— ما هذا يا رجُلُ ؟! أفعَلْتَ فِعْلَ المجرمين ، وَسرقتَ أموالَ الناسِ . . . ؟؟ لقد كُنَّا بخير ، وكانَ فقرُنا وجوعُنا أحبَّ إلَيْنا من السَّرِقة والإجرام ، خذ هذا الكِيس وأَعِدهُ إلى المكانِ الذى أخذْتَه منه . . .

قال الرشيد :

— هذه زوجةٌ صالحةٌ ذاتُ دين وأخلاق ، ولا بدَّ أَن يحفَظها الله ويوسِّع رزقَها .

واستمر منصور يقول :

— فقلتُ لها : هذا رِزْقُ العِيال يا امرأة ! وقد ساقَه الله إليهم ، كما يرْزَق الدُّودةَ الصغيرةَ فى الصخْرةِ الصلبَة .

وحكيْت لها حِكايتى مع سيدى عبد الجبّار . ففرِحت أَعظمَ الفرح ، وأخرجَت الدَّنانيرَ من الكيس ، وعدَّتْها فوجَدَتْها مائةَ دينار كاملة .

فأخذتُ ديناراً وخرجْتُ إلى السوق . واشتريْتُ لحم ضأنٍ وفَطِيراً وكعكا وفواكه ، وعُدْتُ إلى البيْتِ وأيقظتُ أطفالِي ، وأطْعَمْتهم أصنافاً لم يذوقوها فى حياتِهم .

وفى الصباحِ رجَعْت إلى المنْسَج لأصنعَ حصيرا جديداً ، فقالت زَوْجتى :

— أرحْ نفسَك يا منصور ، فإنَّ ما عندَنا من الدَّنانير يكفِينا سنةً كاملةً وزِيادة .

فقلْت لها :

— إنَّ الحياةَ من غَيْرِ عملٍ ثقيلة ، وقد عاهدْت سيدى عبد الجبارِ ألاَّ أنقطعَ عن العملِ فى صَنْعتى .

فقال الرشيدُ :

— أحسنْتَ يا منصور . وكلُّ ما سمعتَه منك إلى الآن ،



دخلت على زوجتى ووضعت الـكيس . .

لا شيءَ فيه يستحقُ أن تدخلَ السجن بسبَبِه ! ! فلماذا دَخلتَ السجنَ ؟ !

فقالَ منصُور :

— وفى تمامِ السنةِ والساعةِ التى قابلتُ فيها سيِّدى عبد الجبار ، خرجتُ إلى مكانِ لقائه ، فوجدْته ينتظرُنى هناك واستَقْبَلَنى بفرحٍ زائد . وقال لِى :

— كيفَ حَالكَ يا منصُور وحالَ أَولادِكَ ؟ !

فقلتُ لَهُ :

— نحنُ فى أحسن حالٍ وأكْمَلِ نعمةٍ يا سيِّدى .

فأخرجَ كيساً آخرَ من جيبِه . وقال :

— ارجعْ إلي زوجتِكَ ، وَأعطها هذا الكيسَ لتنفق منه ، واستأذِنْها فى السفرِ مَعى مدةَ شهريْنِ ، وسيكونُ لك الخيرُ الكثيرُ فى هذا السفرِ

زوجتِي وأوصتْنِي بأنْ أكونَ خادماً مخلصاً لسيِّدِي عبدِ الجبار ودعَتْ لِي بالسَّلامَةِ فى السَّفر وفى العوْدَةِ .

فرِحت

ورجعْتُ إلى سيدِي عبدِ الجبار ، فأخذني وسارَ بِي إلى خارجِ المدينةِ ، ومشيْنا حتَّى وصلْنا إلَى سفحِ الجبل فوجدْتُ جوادَيْنِ مربوطين ، وعليهِما الزادُ والسلاحُ الذى نحتاجُ إليهِ فى سفرِنا . فركبْنا وسرْنا .

واستمرَّ بِنَا السيرُ شهرًا كاملاً ؛ نخرجُ مِنْ صحراءَ لندخلَ فى صحراءَ ، وننزلُ من جبلٍ لنصعدَ فوقَ جبلٍ . وهَكَذَا ، حتّى وَصلْنا فى النهايةِ إلَى وادٍ فَسيحٍ ، تحيطُ به المياهُ مِنْ ثلاثِ جهات ، وعَلَى جوَانبِهِ الأشجارُ الباسقةَ ، ذاتُ الأغصانِ المتشابكة ، والثمارِ الشهيَّة .

وفى وَسَطه الزُرُوعَ والنباتاتَ والأزهارُ المختلفةَ الألوان ، الذكيَّةَ الرائِحَة

فوقَفَ سيِّدى عبدُ الجبارِ على حافةِ الوادى ، وأشارَ بيدِهِ إلَى مكانٍ بعيدٍ فى وسطِهِ ، فنظرْتُ حيثُ أشارَ ، فرأيتُ بيتاً صغيراً ، مصنوعاً مِنَ الرخامِ الأبيضِ ، وعليهِ قبةٌ مذهبةٌ ، تلمعُ تحت أشعةِ الشمسِ ، ويتوهَّجُ بريقُهَا ، كأَنَّهَا قطعةٌ مِنَ الجمْرِ الملتهب . وقالَ لى :

— هلْ ترَى تلكَ القبةَ ؟!

فقلت :

— نَعَمْ يا سيدِى أرَاهَا ، وأعْجَبُ مِنْ بنائِها فى هَذَا الوادِى ، الذي لا أثرَ فيهِ لإنسانٍ ولا حيوان !!

فقالَ :

— هذا قصرُ لقمانَ الحكيم ، وقد بناهُ بالحكمةِ والسِّحر وَسَطَ هذهِ الصحراء ، وأنشأَ لهُ هذَا الوادَى العجيبَ .

وتحتَ هذهِ القُبَّةِ حجرةَ لقمانَ الخاصَّة ، التى تحفظ فيها كتابَ حكمتِهِ .

فقلتُ :

— لَقَدْ سمعْتُ عَنْ لقمانَ وعَنْ حكمتِهِ ، وعرفتُ أنَّهُ كانَ حكيمَ عَصْرِهِ وزمانِهِ ، وأنَّهُ كانَ يأمُرُ بالمعروفِ ، وَيُعَلِّم الناسَ الخيْرَ . ولَمْ أَسمع عنهُ أنهُ كانَ ساحرًا !!

فأجابَنِى قائلاً :

— سترى الآنَ ما يُدْهِشُكَ ويحيِّرُكَ ، وَقدْ قرأتُ أَنا كثيرًا عَنْ سحرِ لقمان ، وَجئتُ مِنْ قبلِكَ إلى هَذَا الوادِى ؛ لأحصلَ على كتابِ الحكمة . ولكنِّى رجعتُ خائبًا فِى سَعْيِى ؛ لأنِّى وَجدتُ بابَ القصرِ مَرْصُودًا على إنسانٍ خَاصٍّ ، لا يُفتَحُ إلا بإذْنِهِ وَطلبِهِ . وعرفتُ أوصافَ هذا الإنسانِ ، فلمَّا رأيتُكَ فى العامِ الماضى ، أحْسَسْتُ أنَّكَ الرجلُ المطلوبُ ، الذى تُفتح أبوابَ القَصْرِ له .

فلمَّا سمعَ الرَّشيد ذلكَ ، هزَّ رأسَهُ ، وقالَ لجعفرٍ :

— ظهرت حقيقةَ سيِّدِى عبدِ الجبَّار ... إِنّه صيادٌ ولَيْس كريماً بِطَبْعِهِ .

فقالَ جَعْفَرٌ :

— نعمْ ياموَلاىَ ، وكانَ الكيسُ بما فيه من دنانير هُوَ الطعْمَ الذى صادَ بهِ مَنْصُوراً .

وضَحِكَ الرشِيد ، وضحك جعفرٌ . وقال الرشيدُ لمنصورٍ :

— استمرّ فى قصتِكَ الشّائِقَة .

فقَالَ منصورٌ :

— ثُمَّ قَالَ لى : وستجدُ أمامَ البابِ أسدين هائلين يَحْرُسانِهِ ، فلا تَخَفْ منْهُما ، ولا تَتَرَدَّدْ فى السيرِ إلى البابِ؛ فإنّكَ إذا خِفتَ أوْ تردَّدْتَ ، هَجَما عليْكَ ومزَّقاَ جسمَكَ . وأعطانى حجاباً صغيراً ، وقالَ : إنَّهُ يُشَجِّعُكَ وَيحفظُكَ مِن شرِّ الأسَدَيْنِ . وإذا فتَحْتَ البابَ سمعتُ أناَ الصوتَ وجئتُ إليكَ .

وتذكرت وصيةَ زوجتى بالإخلاصِ لسيدِى عبد الجبار ، واعتمدتُ على الله ، وأخذتُ منه الحجاب ، وسرتُ فى الوادِى حتى اقتربْتُ من القصْرِ ، فإذَا بالأسدين يزأَران ويُزَمْجِران . ويهجم كلٌّ منهما علىّ منْ جانب ، فأحسسْت بالْخوْفِ والرعبِ ، ولـكنِّى تذكرتُ نصيحة سيدى عبد الجبار ، فأغمضت عينىَّ وسِرْت إلى الأمام ، حتى وقفتُ أمامَ البابِ ثم فتحت عينىّ فوجدتُ الأسدين جثتين هامِدَتَين ؛ ففرحتُ أشدَّ الفرح ، وطرقت البابَ بيدى ، فسمعتُ صوتًا من الداخل يقول :

— جئتَ يا منصور ! أهْلاً بك وسهلا ! و فُتِـحَ البابُ بشدةٍ ، فاهتزَّت الأرضُ وارتجفَتْ ، كأن زِلْزَالا كبيرًا حدثَ بها ، وما كـدتُ أنتبِهُ من دَهْشتِى ، حتّىوجدتَ سيدى

عبد الجبار واقفاً بجانبي فرحانَ مسروراً ، وهو يقول :

— فزْنا بحكمةِ لقمان ! ! الحمدُ لله ! الحمدَ لله ! فزْنا بحكمةِ لُقْمان . . .

ثم سارَ أمامى حتى وصلنا إلى قاعةٍ فسيحةٍ ، تَحْتَ القُبّة الذهبِية ، فوجدْنا فى وَسطِها كرسِيًّا من الخشَبِ الثمين ، مَطلِيًّا بالذهب ، وقد جلَس عليه رجل عظيمُ هيئة ، وقورُ الشكل ، ووضَع يده على كتابٍ عن يمينه ، فوقَ نضدٍ من الذهب الخالص .

فقالَ سيِّدى عبدُ الجبار:

— تقدَّمْ أمام الحكيمِ لقمان ، وحَيه باحترامٍ وخُشُوع ، واستأذنهَ فى أخذِ الكتابِ منه .

فَصَنعْتُ ما أمرَنى به ، ووقفتُ أمام لقمانَ الحكيم ، وَحَيَّيْته : وقلت لَهَ :

— السلامَ عليك يا حكيمَ الزمان ، يا صاحبَ الحكمةِ

الخالدة، والمعرفةِ النافعة ، لقدْ جِئْتُ الآن آخذُ كتابكَ الفريد ؛ لأنتفع بِحِكَمِه وفوائده ، وأنفعَ بها الناس . فهل تسمح يا سيّدي الحكيم ، أن تعطيَني هذا الكتاب !

فلما سَمِعَ كلامي ، رَفعَ يده عن الكتابِ فأخذتُه وخرجنا .

فلمَّا وَصل منصورٌ إلى هذا الحدِّ من الكلامِ ، اهتزَّ الرشيدُ وَنظر إلى جعفرٍ وقال :

— آه ! لقد ربح المغربيُّ رِبحاً عظيماً . . . وفازَ بكتابِ لقمانَ الذى جَمَعَ فيه أعلَى الحِكَمِ ، وأعظمَ العلوم ، لقدْ سَمِعْتُ عنْ هذا الكتاب كثيرًا . . . سمعتُ أنه كتابٌ صغير ، ولكنّه يحتوِى على كلِّ العلومِ التى عَرَفها الناسُ من قَبْلَ ، والتى سيعرفها الناس من بعد . إن الذى يحضِرُ لِي هذا الكتابَ يستحق نِصْفَ مُلْكِي الكبير ! !

فأجابه جعفرٌ :

— لَيْتَنَا يا مولاىَ نَجِدُ سيدى عبدَ الجبار ! ولعَلَّ منصورًا يُسَاعِدُنا فى البحث عنه ! ! إنَّنا حقيقَةً لَوْ وجدنا هذا الكتاب لكنّا أَسعدَ الناسِ فى الحياة .

فقال منصور :

— وليْسَ الكتابُ يا مولاىَ الخليفة كتابَ حكمةٍ فقط ، ولكنْ فيه معَ الحِكمةِ فوائدُ أُخْرَى ، لا يُساويها شىءٌ فى هذه الدُّنيا . . .

فتحسَّرَ الرشيد وزادَتْ رغبتُه فى الحصولِ على الكتابِ ، وقال :

— وما هذه الفوائد ؟ ! إنَّكَ يا منصورُ شَوَّقْتَنا إلى هذا الكتابِ . . .

فأَجابه منصور :

— لقد أَسْمَعَنى سيدى عبد الجبَارِ بعدَ خروجِنا من القصر كثيرًا من حِكَمِ الكتابِ الغالية ، وقال لى :

إنَّ كلَّ حكمةٍ من هذه الحِكم ، تساوِى الدُّنيا وما فيها ، ولكنّ هذا الكتابَ لا ينفعُكَ يا منصور ، وأنتَ رجلٌ فقيرٌ وصاحبُ عيال ، فهيَّا بِنا .

وأَخَذَنى وسارَ حتى وصلنا إلى الجوادِين على حافةِ الوادِى ؛ فركبنا وسرنا فى الصحارِى أيَّاماً ، ثم أخرجَ الكتابَ وقرأَ فيه عدَدًا من الكلماتِ والجُمل، وأَشارَ بيدِه إلى جهةٍ ؛ وقالَ لِى :

— انظُرْ هُناكَ . . . ماذا ترى ؟ !

فنظرتَ يامولاىَ الخليفةَ إلى الجهةِ التى يشيرُ إليها فرأيت شيئاً عجِيبا . . . رأيتُ أمامِى سورَ مدينةٍ كبيرة ، كأنها طلعتْ من باطِنِ الأرض ، وما كنتُ رأيتَها قبلَ إشارته ، فتعجبْتُ كثيراً ولكنه قالَ :

— لاَ تتعجب يا منصور ، فنحنُ قد ملكْنا كتابَ لقمان ، وهذه مدينةُ كنوزِه ، فهيَّا بِنَا إليها . . .

وربطنا الجوادين أمامَ السورِ ، وأشار بالكتابِ إلى البابِ المُغْلَقِ ، فَفتِحَ في الحال . وَدَخَلْنَا نمشِي في طُرُق المدينةِ وشوارِعِهاَ حتى وَصلْنَا إلى سِرْدابٍ ضيقٍ مُظْلِمٍ ، فَنَزَلْنَا إليهِ وسِرْنا فِيهِ قليلاً ، وإذَا بِنا نسمعُ صَفِيراً مُخِيفاً جدًّا ، فقَالَ سيِّدِي عبدُ الجْبار :

— احترسْ يا منصورُ ، وَخذْ حذرَكَ !!

ووقفنا بجانبِ السرادبِ حتى اقتربَ مِنَّا ثعبانٌ كبيرٌ جدًّا ، كأنه جذعُ نخلةٍ طويلةٍ ، ولَهُ أَجنحةٌ مثلُ شِرَاعِ المركبِ ، وَهوَ يزحفُ علينْا ، وينفخُ السُّمَّ في كُلِّ مكان .

وقبلَ أَنْ يصِلَ إلينا أشارَ إليه سيِّدِي عبدُ الجبارِ بالكتاب ، فاحترق في الحال ، وصارَ كومَةَ رمَاد . وقَدْ أنار احتراقُهُ الطريقَ لَنَا ؛ فرأيْنا مِنْ بُعْدٍ بَابَ حجرةٍ مُغلَقَة . فمَشَيْنا إلى هذه الحجرَة ، ونحنُ نبتعِدُ بِأَقدَامِنا عَنْ رمادِ الثُّعبانِ . حَتى لا يُصِيبَنَا شَرُّه .

* * *



فوجدت أمامى أضواء وأنواراً

وفَتَحَ سيِّدِي عبدَ الجبَّارِ الْحُجْرَةَ ، فوجدتُ أمامي أضواءً وأنوارًا ، كأنَّ شموعًا كثيرةً يا مولايَ الخليفة مُوقدَةً في هذهِ الحُجْرَة ، ولكنْ لم تكنْ فيها شموعٌ ولم تكنْ فيها مَوَاقِدُ ، وإنَّما كانَتْ مَلْأَى بالجواهِرِ الكريمة ، مِنْ كلِّ صَنْفٍ وَنَوْع . . .

فَقَالَ سيِّدِي عَبْدُ الجبَّار :

— هَذهِ يا منصورَ كنوزَ لقمانَ الحكيم ، التي جمعها بحكمتِهِ ، وحَفظَها في هَذهِ الحُجْرَةِ ، وسيكونُ لها شأنٌ كبيرٌ في المستقبَلِ ، وسَيَحْصُلُ عليها شابٌّ عربيٌّ ، لِيَبْنِيَ بها لِلعربِ مَجْدًا وَعِزّة ، فَخُذْ مِنْهَا ما يَمْلأُ جَيْبَك وهُوَ القَدْرُ المسْموحَ به لكَ ، أَمَا أنا فَيكفِيني الكتابُ وحِكمَتُه .

ملأت جيبي وطَمِعْتُ فملأتُ قَلَنْسُوَتِي ، وخرجْنا مِن المدينَةِ ، وركبْنا الجوادين ، وما كِدْنا نسيرُ بِضْعَ

خَطَوَاتٍ حَتَّى اخْتَفَتْ المدينة وسُورُها ، كَأَنَّها لَمْ تَكُنْ .

وَعَدْتُ إِلَى زَوْجَتِي أنا وَسيِّدِي عبدُ الجبارِ ؛ فَفَرِحَتْ بعودتِنا أَشدَّ الفرحِ ، وأقامَ عِنْدَنا أيَّامًا ، وهو ينصحُنِي ويعظني ، ويعلمُنِي كيْفَ أُساعِدُ الفقراءَ ، وأُعْطِي الْمُحْتاجِين ثُمَّ وَدَّعَنِي وانْصَرَف .

وعِشْتُ مِنْ بعدِهِ أيَّاماً أَعْمَلُ بنصائحِهِ . ثُمَّ نَسيتُ هذهِ النصائحَ بعدَ قليلٍ ، وأخذتُ أُسْرِفُ وأُبذِّرُ دُونَ أنْ أحسبَ للدنياَ حساباً ، فاغتاظ مِنِّى الجيرانَ ، والأصحابُ ووشَوْا بى إلى رئيس الشرطة ، وأخبروهُ أنِّى وجدتُ كنزاً كبيراً . فحضرَ رئيس الشرطةِ إلي دَارِى ، وفَتَّشَ عن الكَنْزِ ، فوجَد الْجواهِرَ التى كانت فى الْقَلَنْسُوةِ ، فأخذها منِّى كلَّها ، ولم يترك لى شيئاً . وخافَ أنْ أشكُوهُ إليكَ يا مولاىَ الخليفة ، فاتهمنى ظلماً وحكم عَلَىَّ القاضِى بالسِّجْنِ . وَهَأَنذَا كما تَرَانِى يا مَوْلاَى . . .

فلمّا سَمعَ الخليفةُ هذه القصةَ نظرَ إلى جعفر وقال :

— حقًّا إن منصوراً مظلومٌ ، فيجبُ أن يخرج فى الحال من السجْن ، وأن يُعوَّضَ عن سِجْنه بمال كثير .

ثمَّ نظر إلى منصور وقال :

— وهل تعرِفُ يامنصور سيدى عبد الجبارِ إذا لقيته الآن؟

فأجابَ منصور :

— بكلِّ تأكيد يا مولايَ الخليفة ! إنه صدِيقى ، ولا بدَّ أن أَلْقاهُ وأعثر عليه .

وخرج منصور مِن السجْنِ . وظلَّ هُوَ والرشيدُ و جعْفرٌ يبحثونَ عَنْ سيِّدى عبدِ الجبارِ فى كلِّ مكان . . .

* * *

وقد انتهتْ حياتهم جميعاً ولم يجِدُوا سَيِّدِى عبد الجبَّار المغربى . . . فأينَ ذَهَب ؟ ! ابحث عنهُ ؛ لأنهُ يملِك كتابَ حِكمةِ لقمانَ . ويعرفُ الطريق إلى كنُوزِه . فربما تكون أنت الفتَي العربيَّ ، الذى يبنى مجد العَرَبِ مِنْ جديد .

قصص الرشيد

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
الفجالة - القاهرة

مطبعة نهضة مصر
الفجالة - القاهرة